فاعتبر الملك بذلك واعدل وقال الملك اذا ظلم او هم بالظلم ذهبت البركة لاجرم
لاعدلن ولاكونن على افضل الحالات وذكرها ابو ابن الجوزي في كتاب مواعظ الملوك
والسلاطين على غير هذا الوجه فقال خرج كسرى في بعض الايام للصيد فانقطع
عن اصحابه واظلته سحابة فامطرت مطرا شديدا حال بينه وبين جنده فمضى لا
يدري اين يذهب فانتهى الى كوخ فيه عجوز فنزل عندها وادخلت العجوز فرسه واقبلت
ابنتها ببقرة قد رعتها واحلبتها فراى كسرى لبنها كثيرا فقال ينبغي ان يجعل على كل
بقرة خراجا ثم قال هذا حلاب كثير ثم قامت البنت في اخر الليل لتحلبها فوجدتها
لا لبن لها فنادت يا اماه قد اضمر الملك لرعيته شرا قالت امها وكيف ذلك قالت
ان البقرة لم ينزل منها قطرة فقالت لها امكثي فان عليك ليلا فاضمر كسرى في نفسه
العدل والرجوع عن ذلك العزم فلما كان اخر الليل قالت لها امها قومي احلبي
فقامت فوجدت البقرة حافلا فنادت يا اماه والله لقد ذهب ما في نفس الملك
من الشر فلما ارتفع النهار جاءت اصحاب كسرى فركب وامر بحمل العجوز وابنتها اليه
فاحسن اليهما وقال كيف علمتما ذلك فقالت العجوز انا بهذا المكان منذ كذا وكذا
ما عمل فينا بعدل الا اخصبت ارضنا واتسع عيشنا ولا عمل فينا بجور الا ضاق عيشنا
وانقطع مواد النفع عنا وذكر الامام الطرطوشي في سراج الملوك انه كان
بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة ارادب تمر ولم يكن في ذلك الزمان نخلة تحمل نصف
ذلك فغصبها السلطان فلم تحمل في ذلك العام ولا تمرة واحدة قال الطرطوشي
وقال لي شيخ من اشياخ الصعيد اعرف هذه النخلة في الغربية تحمل عشرة
ارادب سنين ويبة وكان صاحبها يبيع في سنين الغلا كل ويبة بدينار وذكر
ابن خلكان في ترجمة جلال الدولة ملكشاه السلجوقي ان واعظا دخل عليه وكان
من جملة ما وعظه به ان بعض الاكاسرة اجتاز منفردا عن عسكره على باب بستان
فتقدم الى الباب وطلب ما يشربه فاخرجت صبية اناء فيه قصب السكر والثلج
فشربه فاستطابه فقال لها هذا كيف يعمل فقالت ان القصب يزكو عندنا حتى
نعصره

٢٠٩

نعصره بايدينا فيخرج منه هذا الماء فقال ارجعي واحضري شيئا اخر وكانت الصبية
غير عارفة به فلما ولت قال في نفسه الصواب اني اعوضهم عن هذا المكان واصطفيه
لنفسي فما كان باسرع من خروجها باكية وقالت نية سلطاننا تغيرت فقال ومن
اين علمت ذلك قالت كنت اخذ من هذا ما اريد من غير تعب والان قد اجتهدت في
عصره فلم استطع فرجع عن تلك النية ثم قال ارجعي الان فانك تبلغين الغرض
وعقد في نفسه ان لا يفعل ما نواه فذهبت ثم جاءت ومعها ما شاءت من ماء القصب وهي
مستبشرة قال وكان ملكشاه من احسن الملوك سيرة حتى لقب بالملك العادل وكان
قد ابطل المكوس والخفارات في جميع البلاد فكان الامن في زمانه وقد ملك ما لا
يملكه احد من ملوك الاسلام وكان لهجا بالصيد قيل انه ضبط ما اصطاده
بيده فكان عشرة الاف فتصدق بعشرة الاف دينار وقال اني خائف من الله تعالى
من ازهاق الارواح لغير ماكلة وصار كلما قتل صيدا تصدق بدينار قيل
انه خرج مرة من الكوفة فاصطاد في طريقه وحشا كثيرا فبنى هناك منارة من
حوافر حمر الوحش وقرون الظباء التي اصطادها في تلك الطريق قال والمنارة باقية
الى الان تعرف بمنارة القرون وكانت وفاته ببغداد سادس عشر شوال سنة خمس
وثمانين واربعمائة ومن عجيب الاتفاق ان المقتدي بامر الله كان قد بايع
لابنه المستظهر بولاية العهد من بعده فلما دخل ملكشاه بغداد الثالثة الزم
المقتدي ان يعزل ولده المستظهر ويجعل ولده جعفر الذي رزقه الله من ابنته ولي
العهد ويخرج المقتدي الى البصرة فشق ذلك على المقتدي وبالغ في استنزال
ملكشاه عن هذا الراي فلم يفعل فسأله المهلة عشرة ايام ليتجهز فامهله
فجعل المقتدي يصوم ويطوي واذا افطر جلس على الرماد للافطار وهو يدعو على
السلطان ملكشاه فمرض ومات في تلك الايام ولم تشهد له جنازة ولا صلى
عليه احد في الصورة الظاهرة وحمل تابوته الى اصبهان ودفن بها واما
بقرة بني اسرائيل فقصتها مشهورة وستاتي الاشارة الى شيء منها في باب العين في

Copyright © King Saud University